

## جهاد أحمد صالح يعيد اكتشاف اسمى طوبي

عيد الأربعاء - احمد دحبور

صالح، وهو ابن قرية دير ديوان من اعمال رام الله، كان - على نزعتة العسكرية - قد وصل الى عالم المقاومة من مواقع ثقافية صرفة، فهذا الذي نشأ في مدينة اربد الاردنية، حصل على شهادة دبلوم الخدمة الاجتماعية، وتولى مهام الاشراف على مدرسة الكادر في منظمة التحرير، ووصل الى منصب مدير عام الشؤون الثقافية في وزارة الاعلام، وترأس تحرير مجلة الزاوية الثقافية في رام الله منذ بدايات الالفية الثالثة، مشاركاً في عدد من المؤتمرات والندوات والندوات الفلسطينية والاقليمية، فضلاً عن عضويته في مجلس الامناء الثقافي المقدسي.

وقد يضيق المقام عن تعداد المهام التي تقلدها، والدور الثقافي الذي انيط به.

اما نتاجه الثقافي فقد تجاوز الثلاثين من الاعمال الادبية ودراسات الترجمة التي تتولى تقديم آبائنا الثقافيين من امثال يوسف ضياء الخالدي، والمعلم نخلة زريق، والعميد الادبي اسحق موسى الحسيني، وامين القدس روجي الخطيب، واحمد حلمي عبد الباقي ونجاتي صدقي واميل النوري وغيرهم وغيرهم.. وما كتابه الذي امامي، حول اسمى طوبي - رائدة الكتابة النسوية الفلسطينية الا احد هذه الاعمال التي تعبق بعرق الجهد والمثابرة.. والابداع بطبيعة الحال.

حين ينهض في مخيلتي وجه صديق قديم، اشعر بأنه يشاركني في عملية ترميم الذاكرة، وهل الذاكرة الا شريط متلاحق من صور الذين عبروا حياتنا واسهموا في تأييدنا ايماننا السالفة، حتى كأننا نعيد انتاج تلك الايام في ضوء علاقاتنا الانسانية وما تتضمنه من عرفان ووفاء.

يحملني هذا المدخل العريض، الى بلدة مصياف، اواسط سورية، فإذا بالصديق يحيى يخلف يقودني الى هناك، بغية زيارة معسكر لفتح، واذا بالمضيف الذي فتح قلبه ويديه لاستقبالنا هو قائد ذلك المعسكر، ولاستخدم مصطلحات ذلك الزمن الجميل، اقول انه الاخ جهاد احمد صالح.

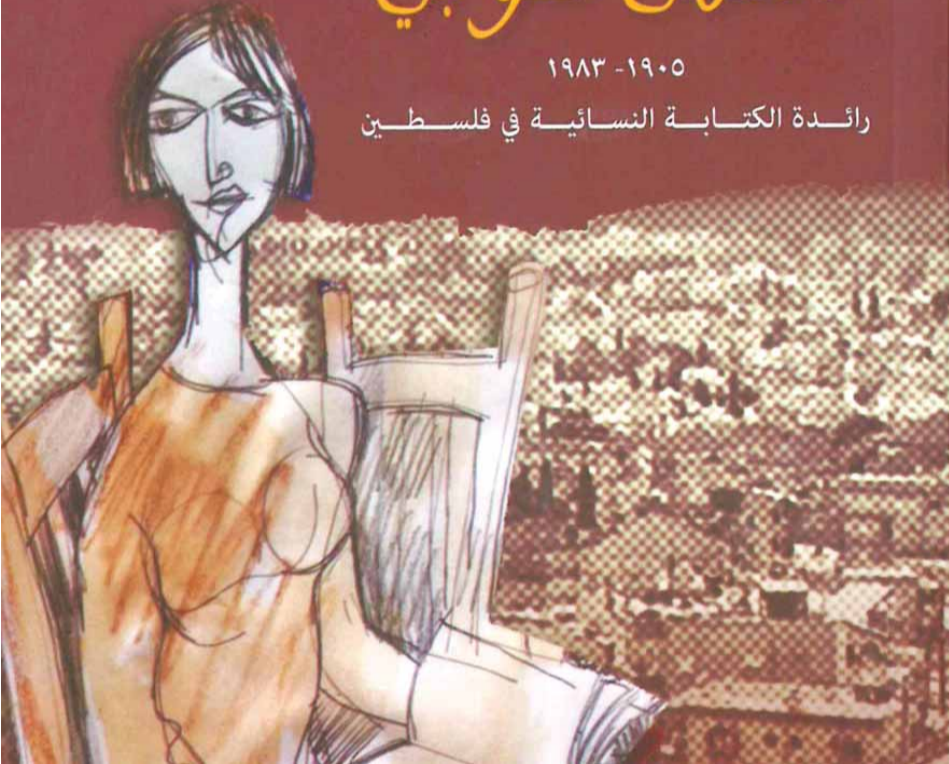
ولا يحتاج الزائر الى كبير وقت، حتى يكتشف ان ذلك الشاب المتمنطق بالثياب العسكرية، يبدو على قدر واضح من الثقافة والقدرة على المتابعة، وعلى المبادرة في طرح الافكار التي تراوح بين مفهوم المثقف العضوي، المرتبط بالناس، ومهام هذا المثقف ميدانيا وانسانيا، واذا باعدت بيننا المسافات وظروف العمل فقد كان يكفي ان اعثر على اثر لهذا المثقف العضوي، حتى استعيد حضوره وكأن احدنا مائل في حضرة الآخر، ومما غدى لحظة التقارب اننا من عمريين متجاوزين، فجهاد من مواليد 1948 وانا رأيت النور قبله بعامين، ولكن العمر مجرد ذريعة للصدقة التي كان اساسها شغف كل منا بالادب والكتابة فيه، فجهاد احمد

جهاد أحمد صالح

اسمى طوبي

١٩٠٥-١٩٨٣

رائدة الكتابة النسائية في فلسطين



للتعرف عليهن حسب جهادهن الثقافي، ومن هؤلاء: ساذج نصار قريبة نجيب نصار ومريم الخليل عويضة وماري صروف شحادة ونمرة طنوس السعيد وفايزة عبد الحميد ويسرى البربري، وغيرهن كثيرات ممن يضيق هذا الحيز المحدود عن ذكر اسمائهن وجهادهن التنويري الذي كان رمزاً لنهوض الشرق العربي كله. ويختار الكاتب شخصية هند الحسيني انموذجاً للسيدة الفلسطينية التي رعت واشرفت واهتمت بالحياة العامة، منذ ان كانت من المؤسسات لجمعية المقاصد الخيرية عام 1956، الى يومنا هذا حيث لا تزال عضواً في هذه الجمعية.

ويتابع الكاتب، بكثير من الدأب والصبر، اسماء الابدات الرائدات منذ مي زيادة الى آخر اديبة عثر على اسمها بين المعاصرات، وهذه عينة من النساء اللواتي احاط بأخبارهن وبتناجهن الادبي: مي زيادة، ثريا ملحس، سميرة عزام، فدوى طوقان، عنبرة سلام الخالدي، سلمى الخضراء الجيوسي، نجوى قعوار فرح، هنرييت سكسك فراج، هدى صلاح، انيسة معلوف، امين عدوان، هذا عدا الاسماء التي لم تظهر في هذا السياق، وثمة قوائم لاحقة بأسماء مبدعات فلسطينيات حتى لتكاد تظن ان الكاتب لم يغفل عن اسم اي منهن، لتفسح المجال بعد ذلك لاسماء الفنانات والمذيعات، بل ان حاسة المتابعة لديه ترسله الى بعض «الجنديات المجهولات» ممن عملن في مجال الادب الفلسطيني ولم يحظين بالاضواء الكافية، او ان اسماءهن قد شاعت في مجال الخدمة الاجتماعية والنشاط الوطني من امثال الشهيذة حلوة زيدان، والشهيذة المسعفة حياة بليسي، وجولييت زكا، وفاطمة غزال.

والواقع ان كتاب جهاد احمد صالح هذا يجمع بين التوثيق والتأريخ والمتابعة ولا يغمط حق بطالاتنا الشيعيات اللواتي كان من حق الباحثين بعث اسمائهن والتعريف بأعمالهن وادوارهن.

فمن النساء اللواتي وقف مطولاً امام تاريخهن المشرق، يبرز اسم فاطمة اليشرطية التي يصفها بـ «زعيمة التصوف بين النساء» مستشهداً بما كتبه في شأنها د. كامل العسلي في دراسته «الفكر الديني: العلوم الاسلامية في فلسطين» ثم يسهب الكاتب في شرح التصوف كما ظهر لدى المثقفين والمتنورين الفلسطينيين حيث «اصبحت لهم مدارس وطرق كثيرة تدعمها الدولة»، والواقع ان تعاليم الصوفية تغلغلت في العصرين المملوكي والعثماني ونشأت عنها طرق متعددة كالوقائية والرفاعية والشاذلية وغيرها، ولكل طريقة معلمون ورموز وأثار.

### الكاتب الرائدة

دعونا نعرف لجهاد احمد صالح، بأنه بذل في هذا الكتاب جهداً كبيراً، لا على مستوى التجميع والتوثيق وحسب، بل على مستوى المتابعة والتدقيق، حيث اعطى اسمى طوبي تحديداً درجة عالية من الاهتمام نظراً لما عبرت عنه في مناجاة الوطن ومفردات العشق. ملاحظاً ان نزعتها الوطنية كانت ذات طبيعة تشارف الصوفية في التوحد بالوطن. لنتابعها وهي تكتب حول المغنية السودبية جين لند مثلاً، وعن الاعراس في التاريخ وفي العالم وعن الانسانية بشكل عام، فنرى اننا امام قلب - موضوعي، اذا جاز التعبير، يمشي على قدمين. ويذهب بها الاستطراد الى استذكار الاندلس، لا كفردوس مفقود، بل كصفحة نوعية في تاريخنا الوسيط، ليختم الكاتب قائلاً: «وهكذا كانت اسمى طوبي، كما ارادت ان تكون، حارة في وطنيتها اولاً، وحارة في مجالات الابداع والكتابة التي مارستها ثانياً، وحارة في انسانيتها ممثلة في قضية المرأة ثالثاً» ولم يكن هذا مجرد تعبير انفعالي عن اعجاب بمعلمة رائدة، بل كان يعي اهمية اسهامها في بناء المجتمع، وفي متابعة نشاط المرأة الفلسطينية واسهاماتها النهضوية، بحيث تستحق عملياً صفة «رائدة الكتابة النسوية» في فلسطين، بل ان لطيفها الادبي كان حاضراً في مجمل بلاد الشام، بل انه يؤكد انها «مثلت قصة نجاح شخصية على المستويين الذاتي والعلمي» اذ انها امتلكت «ريادتها بقوة النموذج والهام التجربة». واخيراً فإن المراجعة الموضوعية لدراسة جهاد احمد صالح هذه تكشف عن جهد نوعي ودأب على استخراج الحقائق بما هي، بعيداً عن التعصب الوطني الذي ما كان ليلومه احد عليه لو وقع فيه، فهذه كاتبة فلسطينية نوعية ليست بيننا الآن الا بمقدار ما عبر ادبها الزمن ووصل الينا حياً معافى. وهو جهد يدفعنا الى الامل في انتظار الكثير من هذا المثقف الذي بدأ عسكرياً ومضى مقاتلاً على جبهة المعرفة والتنوير، واذا كان في صدق كاتبة رائدة فمن حقه ان نعرف به باحثاً رائداً مخلصاً لمشروعه الثقافي.

التمثيلية، وانها ادلت بدلوها بين الدلاء في سبيل التأليف المسرحي والمسرحية الفلسطينية.

وان تسعى كاتبة عربية منذ بداياتها الى الكتابة المسرحية، امر يعني الكثير على مستوى سعة الاطلاع والافق والحياة الثقافية بالمعنى العام. وزادت على ذلك فأنجبت في ميدان القصة القصيرة، وتصدت للتجربة الشعرية حيث «تستند في مضمار الشعر الى معرفة تراثية شعرية عميقة تمتد في الزمن العربي الى ما قبل الاسلام، اما نظمه للشعر فإن اسمى طوبي لم تصدر سوى ديوان شعري واحد عام 1972 بعنوان «حبي الكبير» ويورد المؤلف من شعرها مقاطع تتراوح بين نظام البيت والتفعيلة مشيراً الى الابعاد الذاتية والوطنية والانسانية في نتاجها الشعري.

### محاضرات واحديث

بسرده الشيق المتمهل، يقص جهاد احمد صالح، سيرة اسمى طوبي من حيث علاقتها بالابداع، فيخبرنا - على لسان قريبة لها - انها القت على المنابر ما يزيد على خمسين محاضرة، بهدف توعية المرأة، اما نشاطها فتوزع بين القدس، حيث محملة الازاعة الفلسطينية، ويافا حيث محملة الشرق الاذن للاذاعة، كما اذاعت بعض احاديثها من محملة بيروت، الا ان اللات في هذه التجربة الابداعية، ان اسمى طوبي لم تنتكر للشعر، بل انها كتبه حتى في شكله الحديث، ما يعتبر وعياً متقدماً في فترة كانت تسودها الثقافة المحافظة، ولم تكن اشعارها مجرد استجابة لشكل متطور من الابداع، بل كانت تصدر عن ثقافة وطنية متحركة بالعذوبة والعاطفة الانسانية، لئلا تصيدتها الى امها مثلاً، حيث لا نعثر على مجرد مشاعر نبيلة، بل وعلى لغة حديثة تواكب ايقاع العصر:

في اعالي التل في الصمت المهيب  
يرقد القلب الذي اعطى واعطى

ثم اغفى  
ذلك القلب الحبيب

والى هذا الشعر الحديث، الموزون طبعاً، يضاف ان في سجل اسمى طوبي ما لا يقل عن خمسين محاضرة في النوادي والجمعيات، بهدف توعية المرأة على ما يذكر نصري الجوزي في كتابه «تاريخ المسرح الفلسطيني» اضافة الى نشاطاتها المسموعة في محطتي «الاذاعة الفلسطينية، هنا القدس» و «محطة الشرق الاذن للاذاعات العربية» ومركزها يافا. ثم واصلت نشاطها الاذاعي بعد النكبة من بيروت. وقد تجاوز نشاطها مجال الخواطر النثرية والمحاولات الشعرية الى مجال الترجمة «وقد تميزت اسمى طوبي عن غيرها من المترجمين بأنها من اوائل من طرقوا باب الترجمة الطويلة عن الانجليزية، بترجمتها عام 1929 رواية «على مذبح التضحية» للكاتب والروائي الانجليزي المشهور السير هول كين واصدرتها في كتاب عن المطبعة الوطنية في عكا».

لمتابعي هذه الشخصية الفلسطينية النادرة، ان يتوقفوا بصورة خاصة، عند كتابها «عبير ومجد» وقد صدر عام 1966، وهو محاولة نشطة لتدوين التجربة النسوية الفلسطينية، من العلم الى الشؤون الاجتماعية والجمعيات النسائية بما فيها بعض الشخصيات الناشطة، والادب والادبيات بما يشمل الشعر والفن، فضلاً عن التجربة النضالية المباشرة، وقد جرى المؤلف مسحا ثقافياً للبعثات والمعاهد التي عرفت فلسطين منذ اواسط القرن التاسع عشر الى اواسط القرن العشرين، بحيث غدا هذا الكتاب ملخصاً سوسيولوجياً للنضال الوطني الفلسطيني في التواريخ المشار اليها. وقد ركز على الدور النوعي للرائدات الاجتماعيات من امثال كلثوم عودة وايغون خوري وجميلة الخوري وهدى صلاح حمو وصولاً الى بيان نويهض الحوت وغيرهن من الرموز النسوية في تاريخ فلسطين الحديث، ويتوقف المؤلف بشكل خاص عند الجمعيات النسوية والشؤون الاجتماعية بما تشكلت من صفحة مجيدة في تاريخ الثقافة والسياسة الفلسطينيتين، ولا سيما على مستوى الجمعيات الثقافية والاجتماعية والانسانية، والواقع ان اي تلخيص لن يغني عن قراءة النص الاصيل نظراً الوفرة مراجعه وعناوينه وخصائصه الريادية.

### شخصيات ناشطة

لقد القت اسمى طوبي ضوءاً اساطعاً على الشخصيات النسوية الفلسطينية، اللواتي برزن في مضمار العمل الاجتماعي، وثبتت الاسماء النوعية ذات الاختصاص، بحيث غدا هذا الكتاب دليل عمل يعاد منه الى اسماء شخصياته

### اسمى طوبي

بعد بضع عشرة صفحة مبدجة بتاريخ النضال النسوي الفلسطيني منذ اواخر القرن التاسع عشر يبشر المؤلف عرضه لمشاركة المرأة الفلسطينية في الصحافة مع بدايات القرن العشرين، فيذكر اسماء لامعة مثل اسمى طوبي وسميرة عزام وماري بولس شحادة وفدوى طوقان، ودخولهن مع زميلات لهن الى ميدان النشر الادبي في الصحافة.

ويستوقفه منبران، او محطتان اعلاميتان رائدتان في فلسطين، هما جريدة «مرأة الشرق» التي كان يديرها بولس شحادة وقربنته ماري، وجريدة الكرمل التي كان يديرها الزوجان نجيب نصار وساذج نصار. كما ظهرت في فلسطين عام 1936 اذاعة «هنا القدس» التي قدمت شخصيات نسوية مثل قدسية خورشيد وماري صروف واسمى طوبي وغيرهن مثل فاطمة البديري وسلوى السعيد ووديدة شطارة وعزيزة الحشيمي الصالح، وان تظهر هذه الاسماء النسوية في اعقاب الثلث الاول من القرن العشرين، دليل على مشروع نهضة وتطلع ثقافي كان للفلسطينيات دور ملحوظ فيه، ولم يقف الامر عند حدود الصحافة، بل شهدت فلسطين حينذاك نهضة مسرحية، وانتشرت فكرة التمثيل، وتأسست الجمعيات والنوادي المسرحية، وقد كانت اسمى طوبي من الرعيل الذي اسهم في الكتابة للمسرح، والفت بعض المسرحيات مثل: اصل شجرة الميلاد، ومصراع قيصر روسيا وعائلته، وصبر وفرج، وشهيذة الاخلاص، وواحدة بواحدة، وغير ذلك من النصوص المسرحية ولم تكن اسمى طوبي وحيدة في هذا المجال، بل ظهرت اسماء اخرى مثل نجوى قعوار فرح.

ثم تدفقت اسماء الابدات اللواتي عملن في الكتابة الادبية، مثل فدوى طوقان وسلمى الخضراء الجيوسي، وسميرة عزام، ودعد كيالي، وسميرة ابو غزالة، وصولاً الى جيل سحر خليفة.

ويلحظ الكاتب ان هذا النهوض النسوي ادبياً، لم يرافقه طرح القضايا الخاصة بالمرأة، مثل التحرر من القيود الاجتماعية، بل تغلب المطلب الوطني على اي مطلب خاص بالمرأة، وفي ظني ان ثمة بعض الشطط في هذا الرأي، فروايات سحر خليفة مثلاً تتميز بالترطف دفاعاً عن شخصية المرأة واحتياجاتها، وقصص سميرة عزام وان اهتمت بالمستوى الوطني الا انها كانت تسند البطولة للنساء اساساً، اما شعر فدوى فقد القى حجراً في بركة المسكوت عنه حق لتعتذر، في احدي قصائدها، لصديقها الذي لم توفر له الانعاش الجسدي المطلوب!!

### الترجمة الذاتية

بين العامين 1905 و1983 يمتد عمر من العطاء الذي يشكل سيرة حياة بنت الناصرة، وربيبه عكا، اسمى رزق طوبي، وخلال هذا المسيرة اسهمت في تأسيس الاتحاد النسائي العكي وتولت رئاسته حيناً، وكانت اول سيدة في العالم تحظى بوسام قسطنطين من رتبة ضابط اكبر، وقد تركت سبع مسرحيات من تأليفها مثل «اصل شجرة الميلاد» و«نساء واسرار» و«شهيذة الاخلاص» و«واحدة بواحدة» كما تركت مجموعة شعرية بعنوان «حبي الكبير» ولها خمسة كتب ذات موضوعات اجتماعية وتأملية، اضافة الى تعريب عدد من القصص المنقولة عن اللغة الانكليزية. وكانت في مجمل نتاجها الادبي مثلاً للادبية الملتزمة، فقد كانت فلسطين قضية عمرها، وكلمة سرها منذ البدايات حتى الرحيل.

وكانت اسمى تنشر نتاجها اولاً بأول في الصحافة الادبية مثل «فلسطين - كل الاسرة - كل شيء - الحياة - النشرة - بيروت» وغير ذلك من الدوريات التي كانت تصدر في زمنها، وكانت هذه الدوريات تتميز بما بدأت تسميته بأبد المقالة، فأنشأت مقالات ثقافية مثل «سيدة وطنية ترد - هي ونحن - الرجل والمرأة في الحياة وغيرها اما في المقالات الادبية الصرفة فقد كتبت ونشرت «اماني وتمنيات بنات بلدي - من مآسي الحياة - حب» ولها مجموعة قصصية «من صور الامس البعيد» كما انتجت ما يشبه الطوفان من الخواطر الاجتماعية والذاتية، وقد اورد جهاد صالح عناوين سبع وثلاثين ومئة خاطرة من نتاجها الادبي، موضحاً ان بعض هذه المقالات، ومقالات غيرها نشرت في الصحف والمجلات، قد ظهرت في كتبها الثلاثة «عبير ومجد» و «احاديث من القلب» و «نفحات عطر». وبالمتابعة والتدقيق لاحظ جهاد ان موضوعات اسمى طوبي قد شملت الوطنيات والانسانيات والنسائيات والخواطر الوجدانية والتأملات. وقد توقف عند كل واحد من هذه العناوين، موضحاً جهد هذه الادبية المثابرة في تقديم نفسها وثقافتها ورؤيتها الوطنية، مؤكداً ان «اسمى طوبي قد اسهمت اسهاماً فعالاً في الحركة